بداية عهد السلالات:

لقد سبق أن نوّهنا بتقسيم تأريخ وادي النيل منذ ظهور أولى السلالات الحاكمة إلى عصور كبرى أو أدوار رئيسية أقدمها يعرف باسم عصر المملكة القديمة الذي يقسم بدوره إلى عهدين يطلق على أولهما وأقدمهما اسم بداية السلالات الذي يتضمن بوجه عام السلالة الأولى والثانية ومن الباحثين من يدرج السلالة الثالثة في هذا الطور أيضاً. أما الطور الثاني من عهد المملكة القديمة فيطلق عليه اسم عصر الأهرام (2780 ـ 2270 ق.م) ويشمل السلالات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، إذا لم تلحق السلالة الثالثة بالطور الأول (أي طور بداية السلالات). وسنوجز الكلام على خصائص كل من هذين العهدين المهمين في تأريخ حضارة وادي النيل.

وقبل أن نذكر ما نعرفه عن أولى السلالات الحاكمة التي تمّ في عهدها أول توحيد لمصر في مملكة واحدة نقول شيئاً موجزاً عمّا نعرفه عن الأحوال السياسية في وادي النيل قبيل توحيد المملكة المصرية الذي تعزوه المآثر إلى السلالة الأولى، وبوجه خاص إلى مؤسسها «منا» المأثور.

فقبل أن يتمّ هذا التوحيد المأثور بدأت الحياة السياسية في مصر في فجر التأريخ بهيئة إمارات ودويلات مدن كثيرة منتشرة في كل من مصر العليا والسفلى. وقد عرفت هذه الأجزاء السياسية في العصور التالية باسم الولايات أو الأقاليم أو بالمصطلح اليوناني «نومي أو نوموس» (nome, nomus). هذا ولا

يعلم عدد هذه الوحدات الإقليمية قبل أن يوحد «منا» القطر في مملكة واحدة، ولكن الظاهر أن عددها عندما وحّد البلاد كان نحو 42 «نوما» (22 واحداً منها في مصر العليا، و20 في مصر السفلى)، وكان لكل ولاية ديانتها الخاصة وإلهها أو آلهتها الخاصة ورمزها الديني السياسي. ومما لا شك فيه أن تكون تلك الولايات أو الدويلات في حروب بعضها مع بعض للسيطرة، وظلت كذلك حتى تقلص عدد الولايات الحاكمة بالفتح والضم وصارت قبيل السلالة الأولى مملكتين منفصلتين، مملكة جنوبية في مصر العليا تمتد من أسوان إلى قرب «منفس»، والثانية تشمل باقي مصر في مصر السفلى (أي المملكة الشمالية) ويضمن ذلك الدلتا وكانت عاصمة مصر العليا، أي عاصمة المملكة الجنوبية، في الموضع المسمى «هيراكو نبوليس» (واسمها المصري القديم «نخين» أو نخيت). وعاصمة مملكة الشمال (المملكة السفلى) في المدينة المسماة «بوتو» في الدلتا. وقد وردت أسماء جملة ملوك من مملكة الشمال في المسلة المعروفة باسم مسلة «بالرمو»، والظاهر أن سكّان هذه المملكة من الساميين والليبيين كما يرجّح أن تكون أكثر تقدماً في الحضارة من مملكة الجنوب وكان رمز مملكة الشمال «الحية» ورمز مملكة الجنوب «النحلة» وعندما تمّ توحيد هاتين المملكتين في مملكة واحدة اتّخذ أول ملك لقبي المملكتين واتّحد رمزاهما أيضاً.

السلالة الأولى:

وبعد أزمان لا يعلم طولها ظهر ملك قوي من مملكة الجنوب ونجح في ضم مملكة الشمال وتوحيد المملكتين في مملكة متحدة لقب ملوكها أنفسهم بملك «مصر العليا والسفلى». وتنسب المآثر هذا التوحيد السياسي إلى أول ملك من السلالة الأولى الذي سمي «منا» (وبالصيغة اليونانية منيس)، والواقع التأريخي عن هذا الملك غير معروف، ولكنه يبدو أنه كان شخصية مركبة يدخل فيها لا أقل من ثلاثة ملوك وهم الملك الملقّب بالعقرب والملك نارمر و«عجا» (أي المحارب) الذين تمّ في عهد حكمهم غزو الشمال وضمّه إلى

مملكة الجنوب ولا يعلم من منهم «منا» المخصوص، وقد ذكرت أثبات سلالات الملوك أسماء ملوك آخرين لهذه السلالة ووجدت لبعضهم آثار خاصة وقبورهم الخاصة، نذكر من هذه بوجه خاص اللوح الخاص بالملك «نارمر» (نعرمر)[1].

وتروي المآثر المصرية المتأخرة أيضاً أن مدينة «منفس» قد بُنيت في موضع استحصله من النيل الملك «منا» مؤسسة السلالة الأولى المأثور بسده النيل وتحويل مجراه الأصلي إلى الشرق. ومهما كانت صحة تفاصيل هذه المآثر فالذي لا شك فيه أن أحد ملوك السلالة الأولى الملقّب بلقب «منا» (أو مني أي الثابت) هو الذي أسس «منفس» لأن الآثار الخاصة بالسلالة الأولى تكثر في جوار المدينة ولم يعثر بعد على آثار مما قبل ذلك العهد[2]، هذا لا يعلم بوجه التأكيد هل اختار مؤسس «منفس» هذه المدينة لتكون عاصمة المملكة الموحدة أو أنها اختيرت لتكون مجرّد حصن بالنظر لموقعها المسيطر على المملكتين ثم صارت عاصمة البلاد للسبب المذكور أي بالنظر إلى موقعها الجغرافي حيث تقع تقريباً في الحد الفاصل بين مصر العليا والسفلى، وكان هذا في الواقع اختياراً موفقاً لتوطيد الاتحاد السياسي المنجز حديثاً ولسهولة إدارة المملكتين. ولكن مع هذا التوحيد واستمراره في عهد السلالات القوية إلا أن حقيقة أن مصر كانت مقسمة إلى جزأين أو مملكتين متميزتين لم تختف من الوجود في العهود التالية، حتى أنه كان من الألقاب الرسمية المهمة للفراعنة لقب ملك «مصر السفلى والعليا». ومع أننا نجهل أساليب الإدارة التي اتبعها ملوك السلالة الأولى في إدارة المملكة إلا أن المرجّح كثيراً أنهم اتبعوا الإدارة المركزية والسلطة المطلقة. وقد وجد في التنقيبات التي أُجريت حديثاً في المقابر الكائنة في صقارة عدد كبير من قبور الموظفين والحجاب والتابعين لبلاط الملك في عهد السلالتين الأوليين، مما يشير إلى أن الفرعون كان يتبعه

---

(1) انظر: The British Museum Guide, (1930), 279 ff.

(2) انظر: Edwards, The Pyramids of Egypt, 17 ff.

ويساعده في حكومته المركزية عدد كبير من الموظفين المربوطين بالبلاط. ويبدو أن الأقاليم السابقة (النومات) قد توحّدت الآن في حكومة مركزية إلا أن ملوك هذه السلالة قد سمحوا لها بالمحافظة على كياناتها، ولكنهم عيّنوا حكّاماً يديرونها من قبلهم، وكان مثل هؤلاء يحكمون بالتعيين وظل المحال في عهد السلالات التالية، ولكن وظيفتهم صارت بالتدريج وراثية خاصة بأسر معينة، وهكذا نشأت في مصر القديمة منذ فجر التأريخ طبقة خاصة من حكّام الأقاليم أخذت تهدد سلطان الفرعون[1] بعد ضعف المملكة القديمة حتى استقلّ هؤلاء في أقاليمهم في نهاية السلالة السادسة (أي في نهاية عصر الأهرام).

واشتهر عهد السلالة الأولى بأن حكّام مصر منذ هذا العهد أو ما قبل ذلك بقليل بدأوا يفكرون بطريقة للدفن تضمن عدم تلف قبورهم وتخريبها فبنوا فوق حفرة الدفن بناء ظاهراً فوق الأرض مشيّداً من اللبن وقد عرف هذا النوع من القبور باسم «المصطبة»، وقد وجدت نماذج من هذه القبور في صقارة بعضها يرجع إلى بعض ملوك السلالة الأولى مثل «أخا»، وكانت العادة أن يزيّنوا خارج بناء المصطبة بطراز عماري من «الطلعات» و«الدخلات» على غرار طراز العمارة في حضارة العراق القديم مما ألمحنا إليه سابقاً.

السلالتان الثانية والثالثة:

لقد وردت في أثبات سلالات الملوك أسماء جملة ملوك خصصوا إلى السلالة الثانية، ووجدت لبعضهم آثار فيها نقوش كتابية مثل «حتف ـ سخموي» و«رع ـ نيب» الخ، وطرأ تطور في طريقة الدفن الملكية في عهد هذه السلالة،

---

(1) معنى كلمة فرعون (فير ـ عو) المصرية (البيت العظيم) وكان أقدم ذكر لهذا المصطلح في النصوص المصرية من عهد خفرع (السلالة الرابعة) (دليل المتحف البريطاني 1930 ص 292) ولكن كان هذا اللقب يشير إلى القصر ولم يستعمل لقباً للملك بصورة رسمية إلا في عهد السلالة الثامنة عشرة (عهد الأمبراطورية).
(Wilson, The Burden of Egypt, 102).

فإن القبر مع بقائه بهيئة مصطبة إلا أن البناء الظاهري فوق حفرة الدفن صار صلداً غير مجوّف (أي لا يتكوّن من بناء من حجرات كما كان الحال عليه في عهد السلالة الأولى) وإنما كانوا يملأون داخل المصطبة باللبن وكسر الحجارة ويغلف وجهها بالآجر، ولكنهم وسعوا من حفرة الدفن تحت المصطبة بحيث صارت تحتوي على جملة حجرات لخزن الأثاث والأشياء التي كانت تودع فيما مضى في حجرات البناء المجوّف الظاهر في قبور السلالة الأولى، أما ملوك السلالة الثالثة فإنهم بدأوا يستعملون الحجر في قبورهم، وقام أحد ملوك هذه السلالة المسمى «زوسر» ببناء جديد هو الهرم المدرج الذي تطور عن المصطبة وتطور عن هذا الهرم المدرج الهرم الصحيح الذي كان أول ما ظهر في عهد السلالة الرابعة، أي في عصر الأهرام الذي سنذكره في موضع آخر. ويعزى إلى عهد السلالتين الثانية أو الثالثة أصل التقويم الرسمي.

وتشير مجريات الأحوال التأريخية إلى أن الوحدة السياسية التي أنجزتها السلالة الأولى لم تكن موطدة دائمية وظل النزاع بين الجنوب والشمال مستمراً في عهد السلالة الثانية إلى أن استطاع أحد ملوك السلالة الثالثة من غزو الشمال (وأصله من مصر العليا) واسمه «خع ـ سخموي» ويبدو أن هذا استمرّ في الحكم من منفس، وكان ابنه المسمى «زوسر» (أي المقدس) أعظم ملوك السلالة الثالثة، وقد سبق أن قلنا إنه اشتهر ببناء أول هرم مدرج في تأريخ مصر في صقارة وسيأتي وصفه في موضع آخر. وقد وجدت في ذلك الهرم آثار نفيسة من الفن المصري. واشتهر في عهد هذا الملك معمار اسمه «يمحاتب» (أو أمحوتب) تعزو إليه المآثر بناء الهرم المدرج كما عزت إليه المآثر المتأخرة أنه كان مؤلفاً وساحراً وطبيباً.

وفي وسعنا أن نجعل عهد السلالة الثالثة عهد الوحدة السياسية الموطدة التي شملت جميع القطر المصري، واستمرّت هذه الوحدة بمقياس أوسع وتوطدت أكثر في عهد يعدّ من أعظم العصور المصرية، ألا وهو عصر الأهرام الذي سنأخذ بعض الأمور المفيدة عنه.